اللغة العربية والحياة

بقلم ابراهيم شعراوي

في ضجيج الصراع القائم بين دعاة الفصحى ، ودعاة اللغات الشعبية في البلاد العربية .. تضيع حقيقة كبيرة ودقيقة معاً، هي أن هذا الصراع قديم قدم اللغة نفسها .

ففي العصر الجاهلي، كان السّراة يقومون برحلاتهم التجارية فيجدون فرصاً للاختلاط والتعارف والمعرفة . وفي هذه الرحلات شاهد العرب اجواء اكثر حضارة ، واصطدموا بحيوات جديدة ولم يجدوا في كلمات البادية ادوات كافية للتعبير عن هذه المعارف

وسرت إلى اللغة الفاظ جديدة اعجمية . واضطرت الجماهير إلى احتضان هذه التعبيرات حين زحفت الى الصحراء سلع جديدة وذكريات جديدة .

وبتكوين الحواجز التي يحيابها الذين مارسوا هذه التجارب، بجانب البادية التي يعيش الناس بها حياة بدائية ضيقة ، ظهر الخلاف جلياً بين قدرات هؤلاء وأولئك في التعبير ، وبدأت الفاظ الحواضر تجد طلاوة الحضارات المتاخمة ورقة العمل التجاري المحتاج الى براعة العارض في اجتذاب العميل .

فان كانت الالفاظ الاعجمية قد سرت في رفق وهوادة إلى اللغة الفصحى في العصر الجاهلي، فانها قد زحفت اليها في عنف في عهد الفتوح الاسلامية . ففي البلاد التي كانت تركع تحت سنابك الخيول العربية المظهمة ، وسيوف الاسلام ، كانت اللغة العربية تطغى باستمرار على اللغات المحلية .

ولكن هذه اللغات كانت تترك في اللغة الغازية ماتتركه المعركة في ثياب المنتصر من تمزيق وتشكيل وتلوين .

وبالاختلاط بنظم جديدة وحضارات جديدة وقوانين جديدة في البلاد المحكومة المهزومة اثبتت الفصحى انها معدة قوية تستطيع ان تهضم هذه الحضارات والثقافات .

ودعاة اللغة الشعبية يسلطون الضوء على اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في انجلترا وفرنسا وايطاليا ، وكيف عاشت اللغات الشعبية على جثة الشهيدة : « اللاتينية » ، وان ما حدث في اوروبا في تجربة اللاتينية « يجب » في رأيهم ان يحدث مثله في بلادنا .

ولكن ما يصدق هناك لا يصدق هنا . ليس لان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا كما رأى « كبلنج » وردد له الاستاذ «العقاد» .. بل لاختلاف الظروف التاريخية والاجتماعية التي لازمت كلا منهما:

ففي العصور الوسطى كانت اللاتينية تعيش في احضان الكنيسة وتحت حمايتها بل كانت سلاحاً للكنيسة في تدعيم سلطتها الزمنية .

وكانت صعوبة الاتصال ، وعدم تقدم وسائل النشر يساعدان على تقوقع هذه اللغة فلم يكن شاذاً ان تتداعى تحت ضربات اعداء الكنيسة الذين كانوا يقفون مع التاريخ ؛ .. لقد كان سهلاً ان تختنق اللاتينية وهي مختبئة في زاوية من زوايا كنيسة ! .. إن الجماهير هي « الاكسجين » للغات ؛ وحتما ستختنق اللغة إذا لم تتنفس بين جماهيرها .

اما اللغة العربية فلم تسر بين الناس ولم تتغلغل الى نفوسهم وقلوبهم على شكل مسجد ، ولم يحتضنها « المشايخ » ورجال الدين وحدهم ، بل ان الفترة التي عاشتها بعد بدء التطور الصناعي وعصر النهضة، جعلت لها شرايين كثيرة تنتشر من خلالها الى الناس من خلال المطبعة فالصحافة . وفي المدارس الالزامية و«الكتاتيب» المنتشرة في القرى ، كانت اللغة تعيش على نطاق اوسع ثم في اناشيد و « اذكار » الطرق الصوفية ومراسيمهم . لقد كان التاريخ في صالح اللغة العربية ، فلا عجب ان تضمر الكلمات المتعملقة وتموت الكلمات المتخمة التي لا تلاحق ركب الجماهير .

و « المواويل الحمر ! .. » هي الشعر المصري الشعبي الحقيقي .. ولها خاصيّة في « التكنيك » مختلفة عن خاصية الشعر العربي . فالشعر العربي يمتاز بالقافية الواحدة الرتيبة التي تأتي في نهاية البيت فتذكرنا بمشية الجمل ... مسافات متقاربة ومتساوقة هي مسافات خطوات الجمل ، وقوافٍ مرددة هي استقرارات خف الجمل . ان الشعر العربي نبت الصحراء ، فلا عجب ان يأخذ طابعه من النوق العربية ذات المشية المتأرجحة الرتيبة .

وكان « الزجل » المصري – ولا يزال في اكثر اشكاله – شكلاً من اشكال مشية الجمل .. فلم يعبر عن شعبنا الا في بعض الصور وفي الفاظها .

أما «المواويل الحمر» فهي الشعر المصري الحقيقي.. فالكلمة الاخيرة من البيت تتكرر في الابيات الثلاثة او الاربعة التالية ثم نجد بيتاً لا يلتزم هذه الكلمة في نهايته ثم يعود الشاعر

في نهاية المقطع الى الكلمة نفسها في آخر البيت كما في المثال التالي:

قلبي عشق طير .. حلو اللسان ونبيه
قعد في وسط المجالس .. وتكلم كلام ونبيه
سألت شيخ عالم حافظ كلام الله ونبيه
ترك الكتاب عن يمينه والتفت قال لي
من عاشر الناس يكون حلو اللسان ونبيه

والمواويل الحمر التي أتينا بمثال منها هي انعكاس لعمل الفلاح ، وانني أجيز لنفسي ان اسميها ادب « الفأس » كما سميت الادب العربي «أدب الجمل».

ان الفلاح يضرب الارض بفأسه في نفس المكان ثلاث ضربات « مثلاً » فاذا أحسّ ان الارض قد لانت من تحته اعتدل يملأ رئتيه بالهواء ، وقد يمسح عرقه بظهر يده ثم يعود يضرب الارض بفأسه ضربة اخيرة قوية وحاسمة .. ثم يرجع خطوة الى الوراء ليضرب من جديد.

وفي الموال السابق تحس في كلمة « نبيه » وتكرارها ، تكراراً لضربات الفأس في نفس المكان ، وترى في «قال لي» استراحة الفلاح ووقوفه ليأخذ نفساً عميقاً ، وفي « نبيه » الاخيرة الضربة الحاسمة .

ولا شك اننا سنجد في سوريا ولبنان وجميع البلاد العربية في المناطق غير الصحراوية ضروباً من الفن الشعبي فيها انعكاس للبيئات ، ليس فقط في التشبيهات والصور ، بل في « التكنيك » والاداء ايضاً .

بقيت حقيقة جميلة تستطيع ان تحسها اذا عدت لقراءة الابيات المقدمة كمثال . انك ستجد الكلمات جميعها عربية فصحى لا تشذ منها كلمة واحدة. وهذا يرينا — ويؤكد لنا — مدى تغلغل العربية في قرانا ، ومدى نجاح إدخال الفصحى في تجارب جماهيرية . وهذه الابيات المذكورة آنفاً ليست من انتاجي ولا انا قرأتها في كتاب او تخيرتها من ديوان شعبي ، بل انا سمعتها من فلاح مصري لا يعرف أية خصائص لهذا الفن ...

ولا بد ان آتيك بمثال آخر من الشعر الشعبي المصري المتأثر بأدب الجمل في الاداء وان كانت الصور والاحاسيس جميعها من صميم البيئة المصرية... وستجد انها كسابقتها ليست بها كلمة واحدة بغير الفصحى :

«الزين»ست ابوها.. جايين يخطبوها .. يا فرحة ابوها .. واعمامها واخوها
من «عذبة» لعذبة.. منقولة الأحبة .. شاريين المحبة .. والفاتحة قروها
جايين الهدايا .. من الغالي الكفاية .. شايلاها الصبايا .. والشبكة جبوها
الحنة في صواني .. حواليها القناني .. الليلة التهاني .. والدار بيضوها

وواضح ان في بعض الكلمات تحريفات هي نتاج المزاج المصري ، والبيئة المصرية من جانب ، وهي مصابة بما تصاب به بعض السلع والادوات من الكسر او الشرخ من آثار نقلها من مكان لآخر. وقد عرفت شاعراً كتب قصيدة يصف فيها حادث اعتقاله ومجيء الشرطة لتفتيش بيته، ووقوف امه مذهولة ، ثم الكلمات التي قالتها امه ، ولم يجد شاعرنا في الفصحى ما يكفي من طاقات لاخراج هذه التجربة فجعل من قصيدته بيتاً كاملاً بلغة مصر الشعبية هو :

انت يا صدقي خلاص ضعت والله العظيم

وانا آسف ألا استطيع الاتيان بالقصيدة كاملة لترى معي مدى التلاحم النسيجي بين هذا البيت والقصيدة كوحدة، وانت اذا قرأت القصيدة ستجد لهذا البيت ضرورة كضرورة الجُمل والتعبيرات التي يأتي بها «ت.س. إليوت» في شعره من لغات اخرى... ومع ذلك فلو تغاضيت عن كلمة « خلاص» فستجد البيت كله بالفصحى .

ان خير طريقة للتخلص من الترهل والسمنة ، من كتل الشحم والدهن هي النزول الى ساحة كبيرة والعدْو. فمع حبات العرق والانفاس اللاهثة الملتهبة .. ستذوب كتل الشحم وتعود للجسم قوته ورواؤه .

هذه حقيقة . والحقيقة الثانية هي ان الجسم قد لا يكون مستعداً للعدو ، فقد تكون السمنة نتيجة لمرض ، وفي هذه الحالة سيؤدي العدو الى نتيجة واحدة هي الموت. ولنعد — كرة أخرى — الى لغتنا الفصحى : ان هذه الرزانة التي تبدُو في مظهرها ليست الا ترهلاً من نتيجة الفترة الطويلة التي قضتها اللغة على المساطب والوسائد الحريرية المحشوة بريش النعام . ولا سبيل الى تخلصها من الترهل الا بترك هذه اللغة تعدو في ميدان الحياة والصراع .. سيفوح العرق منها في اول الامر ، وسيثور عشاق الدهن والاكتناز ، ولكنا سنصل — حتماً — الى لغة فتية رشيقة تستيقظ مع استيقاظ الفجر لتعيش مع الصيادين في قواربهم البالية وتغني معهم ، وستسير في يسر في ممرات المصانع تواجه صخب الآلات ، وستعمل بين الفلاحين على السواقي والجرارات .

شيء واحد — انا — مطمئن اليه هو ان اللغة الفصحى لن تموت في هذه التجربة لان دراسة التاريخ ستصل بنا الى ان اصل هذه السمنة ليس مرضاً بل هو الترف الذليل الذي عاشته في الابهاء وسراديب الخمور .

وفي المواقف الكفاحية للشعب المصري ، وقفت الفصحى بجانب المظلومين ، وعاشت في تجربتهم في خطب مصطفى كامل ومحمد فريد وعبدالله نديم والافغاني وأعطيت للفصحى فرص اكبر للجماهيرية .

صحيح أن النديم كان يمارس الجماهيرية باللغة المصرية الشعبية في بعض كتاباته ، ولكن الصحافة والاذاعة ووسائل النشر قد تضاءفت عما كانت عليه في ايام البطل المصري عبد الله نديم . ثم ان كثيراً من كلماته الشعبية تصادمت في هذه الفترة مع الفصحى وطعمتها او تأثرت بها .

واتجه الكتاب والفنانون الى فهم حقيقة جديدة اثناء ممارستهم الكتابة هي ان هناك فرقاً بين التعمق والتعقيد ، فليس كل شيء معقد ذا قيمة .

قد يقدم الفنان أثراً معتمداً على نظرية النسبية او بحثاً في « الهرمونات » او «الالكترون» في سهولة ويسر ، وقد يقدم مفهوماً بليداً في الغزل او الصوفية في تعقيد ممجوج .

بل ان تقدم علم النفس حقق لنا ان التقيد في الكتابة هو نتاج لمركب النقص ، وباتجاه الكتابة الى السهولة اخذت الكلمات الشعبية تجد مكانها في طيبة وإخاء بجانب الكلمات المؤداة بالفصحى والمفروضة على تجارب شعبنا .

وقد قرأنا في الصحف كلمات دخلتها عمليات « التدجين » و« التمصير » . قرأنا عن « الرجل العجوز » و« القتيلة » والاولى لا يوصف بها الرجل والثانية لا تؤنث . . ان انعدام «التشكيل» في المطبعة الحديثة هو الذي اضطر الصحف الى تأنيث كلمة لا تؤنث ليعرف القارىء نوعية « القتيل » .

ان تطور اللغة انعكاس لتطور ظروف الانتاج والاتصال والنشر . ولقد اعلن المجمع اللغوي فشل سياسته القديمة حين اتجه الى ترك الكلمات للسوق . . . للجماهير . . تحدد وتستعمل الكلمة التي تروق لها .

واللغة اداة لفهم المعارف والعلوم والآداب . . . وليست وسيلة ليضيع غير المتخصصين الوقت في فهمها او تعلمها ، وان اضطرارنا الى تلك الدراسة ليؤكد النكتة التي تقول ان غيرنا يخترع الجرارات وعلينا اعرابها !

ثم ظهرت « فئة » تعيش بايديها ، وتفكر بايديها ، وتتكلم بايديها ، فئة تزرع خبزها في احواض العرق ، فئة العمال . والعمال ليس لديهم الفراغ المسئم الذي نقتله في دراسة مشكلات النحو والصرف وتعقيدات اللغة .

وحين نالت هذه الفئة بعض حقوقها بدأت تهتم بالادب ؛ ومع ميلاد ادبها خطت اللغة خطوات واسعة للتقرب من لغات هذه الطبقة الشعبية . وهناك محاولات كثيرة قام بها لفيف من الكتاب في مصر تحت رعاية المرحوم ابراهيم المصري في اخراج قصص باللغة الشعبية .

وسبب فشل هؤلاء الكتاب هو انهم اتوا بتجارب ضخمة بطولية تعودت الفصحى ان تعبر عنها في براعة ، فلم يكن التجديد وليد ضرورة بقدر ما كان بقصد التجديد نفسه . . وعدم اعتنائهم بادخال تجارب شعبية جديدة في فنهم .

والسبب الاهم هو ان العمل الفني تلاحم نسيجي وتفاعل بين الشكل والمضمون ، بين المظهر والجوهر ، بين التعبير والفكرة . . وقد تجاهل هؤلاء الكتاب جانب العرض ، ولم يهتموا الا بالسرد .

والاداء هو المحك الذي يتفاوت فيه الفنانون . . والمجتمع هو الفن في شكله الخام ، والفن هو المجتمع مصقولا .

فان كان الفشل قد اوقف هؤلاء عن الاستمرار ، فان الخوف من التجربة هو الذي اوقف فنانين مجيدين كالاستاذ تيمور عن الاستمرار في انتاج هذا اللون الجديد من الفن الشعبي . اما الزجل فكان اعظم حظاً واكثر قدرة على الحياة من القصة الشعبية لان الزجل غنائي بطبعه . وكان للاذاعة والصحافة اكبر الاثر في تقريب الزجل من لغة المدينة التي تقترب بالتالي من الفصحى كما وضحت بمثال فيما سبق .

واخيراً فالف كتاب لن يجدى في اقناع الناس بترك اوسمتهم وثيابهم الفضفاضة مثل جدوى مجيء فصل الصيف واحتياج الناس إلى خلع ثيابهم ولبس « المايوهات » للاصطياف والسباحة . واكثر الناس تمسكاً بمظاهر الترف في الثياب ، قد يضطر إلى خلعها في يسر إذا وجد نفسه موشكاً على الغرق حتى يقاوم الامواج متخففاً .

والفصحى لن تتخلى عن عنجهيتها استجابة لهتافات ونداءات لصالح اللغات الشعبية ، بل بادخالها في تجارب جديدة بسيطة صغيرة لناس بسطاء وطيبين وصغار وعاديين .

إن الذين سيدعمون الفصحى بتقريب اللغات الشعبية منها أو تقريبها من اللغات الشعبية إنما هم منتجو الادب والفن والعلم الذين يمارسون تجارب تعبيرية جديدة عن احاسيس وانفعالات وتجارب جديدة .

القاهرة

ابراهيم شعراوي
« أسرة الفن الحديث »